جدلية الغياب والحضور في الرواية الكولونيالية الحديثة

The Dialectic of Absence and Presence in the Modern Colonial Novel

أ إبراهيم بوخالفة

المركز الجامعي مرسلي عبد الله

Boukhalfa.brahim@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019\04\11	تاريخ القبول:2020\04\13	تاريخ النشر: أكتوبر 2020

ملخص المقال:

لقد دأب الاستعمار الفرنسي على الحديث عن الجزائريين باعتبار غيابهم، وعن الجزائر باعتبارها أرضا لكلّ الأوروبيين. وهو يرى أن العرب الذين يسكنونها ليسوا أحقّ بها، ولا يستحقونها نظرا لقصورهم وعجزهم عن تمثيل الحضارات الإنسانيّة المتعاقبة على تلك الأرض؛ لقد كان وجودهم هنالك عرضيّا وبغيضا؛ فهم لم يجلبوا للإنسانيّة أيّ فضيلة، إنهم متخلفون جوهريّا وليس غريبا أن العرب يموتون بالطاعون في رواية "الغريب"، فهم أصل كلّ الأمراض والأوبئة؛ ويقع على عاتق فرنسا الحديثة تطهير شمال إفريقيا من العرب ومن الأمراض التي يسببها وجودهم.

يسعى هذا المقال إلى دراسة تيمة الحضور والغياب في الخطاب الكولونيالي الحديث، وكيف سلب الاستعمارُ الجزائريَّ الحقَّ في أرضه بدعوى أنه لا يستحقها. كيف مثّل السرد الروائي الكولونيالي الوجود الجزائري على أرضه وما هي الأساليب الجمالية والفنيّة لجعل هذا التمثيل بليغا ومفحما؟ تلك هي أسئلة هذا المقال.

الكلمات المفاتيح:

الرواية الكولونياليّة؛ الحضور ؛ الغياب؛ الهويّة؛ التاريخ؛ الثقافة.

Summary

The controversy of the presence and the absence

The french colonialisminsisted on talking about Algerians as beingabsent , and about Algeriansbeing a land for all Europeans.ItseesthatAlgerian Arabsdon’t have the right of the land

they live in and theydon'tdeserveit due to theirminority ans unability of representing successive humancivilizations on thatland.Theirexistensetherewasincidental and hatefulsincetheydidn'tbringanyvirtuefoehumanity.
They are substantiallybackward.Anditis not strangethatArabs die with the plague in the novel The stranger .they are the origin of all the epidemics and illnesses.
This article aimsat the study of the presence and absence in the modern colonial speech and how colonialismlootfromAlgerians the right for their land pretendingthettheydon'tdeserveit and how the colonial novel narratives presented the Algerian existence on their land ?And whatwere the esthetic styles to makethispresentation more eloquent and changed .These are the questions of thisarticle .

Key words
The colonial novel ; Presence ; Abscence ; Identity ; History ; Culture.

مقدّمة عامّة:

لقد دأبت فرنسا خلال استعمارها وإعمارها للجزائر مع أواخر القرن التَّاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ على تغييب صوت السكّان الأصليين من خطاباتها الأدبيّة والسياسيّة على حدّ سواء، واعتبار فرْنسة المجتمع الجزائري مسألة محسومة وغير قابلة للتفاوض، لقد قامت بجهود محمومة لإقصاء الثَّقافة العربيّة والإسلاميّة بكلّ مكوّناتها غير أن المناخ القومي والوطني الذي بدأ يسود الهوامش، وحركات التَّحرر التي أطلّت برأسها من قلب الهند والشَّرق العربي، كانت تفعل فعلها في الأوساط الشَّعبية والنخبويّة على حدّ سواء، وفي هذا السياق يبدو تجاهل الخطاب الروائي الفرنسي في الجزائر لهذا المناخ الدولي غير مستساغ.

لقد ظلّتْ الرواية الكولونياليّة تتحدّث عن الجزائر باعتبار غيابها، وتتحدّث عن أرض الجزائر باعتبارها أرضا ملحقة بالمركز، وكان ألبير كامي يجادل في خطاباته الروائيّة والصحفيّة أن كل القوميّات والأعراق من حقّها ادّعاء الحق في هذا الوطن، ولذلك كانت فرنسا تشجّع كل

الأوروبيين على الإقامة في الجزائر مقابل امتيازات عقاريّة لا يحلمون بها في أوطانهم الأصلية، وذلك من أجل مكاثرة المحليين عدديّا وثقافيّا.

في هذه الورقة البحثيّة نسعى إلى دراسة مسألة تمثيل الجزائريين في الرواية الكولونياليّة، ومراوحتهم بين الحضور والغياب، ونبحثُ في أشكال هذا الحضور ودلالاته، كما نبحثُ في خلفيّة تغييب أصحاب الأرض من المشهد التاريخي للجزائر المستعمرة.

تكمن بلاغة الخطاب الكولونيالي في قدرته على تغبيش صورة الجزائري وسلخه عن خلفيّته الإثنيّة والوطنيّة. إنَّ النّظام الكولونيالي غير قادر على ترويج عالم متعدّد الثقافات، والإقرار بمبدأ الاختلاف الذي يفضي إلى نسبيّة القيم وبالتالي قبول الآخر باعتباره مختلفا.

سمات الخطاب الكولونيالي:

يتردّد استخدام مصطلح "الخطاب" في النظريّة النقديّة المعاصرة، وغالبا ما يُوظَّفُ في مجال النقد ما بعد الكولونيالي. وقد أُقْتُبِس هذا المصطلح من استخدامات فوكو في نقده لنظريات المعرفة الغربية في القرون الوسطى والحديثة.

استُخدِم مصطلح "الخطاب" في الغرب منذ القرن السادس عشر لوصف نوع من المحادثة. ولكن المفردة أصبحت تُستخدم بشكل متنامي "لوصف الحديث أو السّرد أو التناول المطوّل والمفصّل لأيّ موضوع متّسم بطابع رسمي أكثر أو مبحث أو أطروحة أو عظة. واستخدم اللغويّون الكلمة بمعنى تخصّصي لوصف أية وحدة كلاميّة أطول من الجملة"[1]. غير أنّ استخدام فوكو للمصطلح في كتابه "نظام الخطاب" وَرَدَ للدّلالة على مساحة من المعرفة الاجتماعيّة المقيّدة بأحكام، أي منظومة من المقولات التي يمكن أن يُدرَكَ العالم داخل حدودها. فالعالم لا يظهر إلى حيّز الوجود إلاّ من خلال الخطابات، أي من خلال التّمثيل. يسمح الخطاب بإدراك العالم وإدراك الذّات وعلاقتها بآخريها.

الخطاب من هذا المنظور "مركَّبٌ من العلامات التي تنتظم الوجود الاجتماعي"[2] إذ تكمن أهميّة الخطاب في كونه يزاوجُ بين القوّة والمعرفة، ولذلك فإنّه ليس بوسع أيّ كائن أن يُنشئ الخطابات. فالذي يملك القوّة هو الذي يحقّ له إنشاء الخطاب الذي يمثّل الذّات والآخرين ويؤوّل العالم، ومن هنا مقولة كارل ماركس في حقّ الشرقيين: "إنّهم غير قادرين على تمثيل أنفسهم، ويجبُ أن يُمثَّلوا" ذلك هو موقف ماركس –المتعاطف مع الشعوب المسحوقة– من تغريب المجتمع الآسيوي عن طريق الاستعمار "وممّا لا ريب فيه أن الماركسيّة تريدُ على ما يبدو إخراجه من اللاّ معنى هذا، وذلك بتوطينه في الحداثة الغربيّة. إنّ المسألة كلّها تُختَصَرُ

في هذه الكيفيّة البحتة. إنها طريقة أخرى وأخيرة لإنكار الآخر"[3]. ليستْ المركزيّة الغربيّة سوى التعبير الفكري عن التفوّق السّاحق للغرب المادّي على العالم، ذلك الغرب هو المؤهّل لتمثيل مستعمراته وتابعيه "من يملك القوّة يتحكّمُ فيما هو معروف، وفي الطّريقة التي يمكن أن يُعرَّفَ بها، وأولئك الذين يملكون مثل هذه المعرفة لديهم سلطة على أولئك الذين لا يملكونها"[4] حيث تكمن أهميّة هذا الربط بين المعرفة والقوّة في طبيعة العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، بين السيد والعبد، بين التابع والمتبوع، بين المركز والهامش "إن رغبة الدول الأوروبيّة في ممارسة الهيمنة الغالبة على العالم والتي أفضتْ إلى تنامي الامبراطوريّات صاحبتها القدرة على تأكيد الأفكار الأوروبية بشأن المنفعة والعقلانيّة والنظام بوصفها حقيقة"[5] وقد أوضح إدوارد سعيد مثل هذه العلاقات من التّمثيل المانوي في "الاستشراق"، حيثُ كشف أن هذه الطّريقة في الإدراك والتمثيل هي وسيلة بليغة لإدامة التسلّط على الشّرق والشرقيين. لقد وقع الربط العضوي بين نشوء الرواية –باعتبارها مصنّعا ثقافيّا– وبين نشوء الإمبراطوريّة وتمدّدها الأسطوري خارج حدودها. ولقد هيمن الغرب الاستعماري مع مطلع القرن العشرين على أزيد من 100/80 من مساحة اليابسة، وكانت تلك هي الفترة الذّهبية للرواية الغربية التي واكبت الامبراطوريّة ورافقتها في رحلتها للهيمنة على الشعوب الملوّنة وتكفّلتْ بالبحث عن المسوّغات الأخلاقيّة للاستعمار، من خلال الرسالة التحضيريّة للرّجل النبيل الذي حبته الطبيعة بكل سمات التطور والذّكاء والجدارة الإنسانيّة.

يحاجج سعيد بأن الرواية في القرن التاسع عشر "تبرز إلى الوجود بوصفها جزءا من تشكيل الإمبراطورية وتعمل بطريقة انعكاسيّة مع قوى الهيمنة الإمبراطورية كإيديولوجيا سائدة في تلك الفترة"[6]

إن الرواية والامبراطوريّة لا يخطران بالبال إحداهما بمعزل عن الأخرى، لقد كان تطورهما وتعاظم شأنهما متوازيا، فقد حقّقتْ المغامرة الاستعماريّة موضوعات أثيرة للسرد الروائي وأدب الرحلة، وفتحت آفاقا شاسعة للتخييل والتجريب، وأمدّت المُخَيِّلة الغربيّة بكل غريب وعجيب، وكل ما من شأنه أن يلهب عاطفة الغربيين، والرواية بدورها جعلتْ الغربيين يكتشفون تفوّقهم العلمي وقدرتهم على احتواء العالم، وامتلاكه وقيادته وفق منظورهم الإيديولوجي، كما أشبعت رغبتهم في الهيمنة الثقافيّة والقدرة على تمثيل الذّات والآخر وإنشاء علاقة تبعيّة بين المركز والهامش، وهي العلاقة التي لا تزال تتعزّز إلى اليوم وتزداد رسوخا وثباتا، رغم تفكك بنية الاستعمار التقليدي، والصحوة النسبيّة التي مسّتْ دول الهامش بفعل عولمة الحداثة.

في الخطابات التي ينتجها النظام الكولونيالي نلاحظ هيمنة منطق الثنائيّات الضديّة، كناية عن التعارض المطلق

بين المستعمر والمستعمر. وقد تجسّد هذا المنطق في اللغة التي تتخلَّل الخطابات، فعندما يرغب المستعمر في وصف أصحاب الأرض الحقيقيين يلجأ إلى لغة دالّة على الحيوانات من مثل قوله "زحف العرق الأصفر، أرواث المدينة الأصليّة، قطعان الأهالي، تفريخ السّكّان، تنمّل الجماهير"[7] ينظر الاستعمار إلى "الأهالي" باعتبارهم كائنات حيوانيّة تتّسم بكل أشكال القذارة والانحطاط الفكري والأخلاقي، حيث يوصي "مسيومايرِ" في الجمعية الوطنيّة الفرنسيّة بأن يمنعوا العرب من دخول المركز، أو حتى مجرد الاقتراب من المدن الفرنسيّة في المستعمرات، أو الدخول إلى المرافق الثقافيّة والمنتديات الاجتماعية الخاصّة بالمعمّرين؛ نقرأ هذا التّحذير في النص التالي: "إنّ علينا ألاّ نلوّث الجمهوريّة بإدخال الشعب الجزائري إليها، ذلك أنّ القيم تتّسمُ وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتكّ بالشّعب المستعمر وتقاليده وخرافاته، خاصّة خرافاته، هي بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم في تكوينه ذاته"[8]. إنّ أساس هذه النظرة العنصريّة التي تحكم موقف الاستعمار من الأصليّين تكمن في تصنيفهم للعرب على أنهم كائنات من تركيبة بشريّة ناقصة، الأمر الذي يجعلهم أقرب إلى الكائنات الحيوانيّة، منهم إلى الموجودات البشريّة. وينطلق هذا الإدراك العنصري للآخر من مركزيّة غربيّة متأصّلة بشكل عقائدي، نتيجة فلسفات القرن التاسع عشر التي أفرزت علما للإناسة يحتفي بالعرق الهندوأوروبي وينتقص من الأعراق الأخرى بشكل فضائحي، فقد اندسّت نظريّات التفاوت العرقي لغوبينو وريِنان ودوساسي في البنية العقليّة والشعوريّة للمفكرين الكولونياليين بشكل لا شفاء منه، ولذلك كانوا كلما همّوا بوصف المستعمَرين بادروا إلى لغة من عالم الحيوانات، لإنتاج كمّ هائل من الصور الرُّهابيّة التي تعزل العرب عن الغربيين عزلا تامّا.

يرى رينان–الأب الروحي للعلمويّة –أنّ "العرق السامي بمقارنته مع العرق الهندوأوروبي، يمثّل في الحقيقة مركّبا أدنى للطّبيعة البشريّة"[9] ويعني ذلك بكل وضوح أن الغرب يحوّل شعوبا وقبائل بشريّة إلى كائنات حيوانيّة، لمجرّد أنها ليست أوروبيّة، ويقتسم رينان هذا الموقف مع عدد كبير من علماء وفلاسفة القرن التاسع عشر الفرنسيين على غرار الشاعر الرومنسي شاتوبريان، وغوبينووتوكفيل الذي كان مؤيّدا للقمع البربري الذي كان الشعب الجزائري يتعرّض له، يقول هذا الأخير أن "كل شعب يريد أن يقوم بحرب ضدّ العرب يجدُ نفسه مجبرا على الإذعان لها"[10]. وقد قال هذه المقولة دفاعا عن الأصوات الفرنسيّة التي تنكر مجازر

الاستعمار ضدّ المدنيين من الجزائريين؛ إنه يرى أن حرق المحاصيل الزراعية وهدم بيوت العزل من النّساء والأطفال هو من الضّرورات المؤسفة للدّفاع عن النفس وعن المستوطنين.

تستمدّ بلاغة الخطاب الكولونيالي قوّتها التعبيريّة، وجماليّة أساليبها، وبنيتها الفكريّة والإيديولوجيّة من جوهر العقيدة العنصريّة التي بمقتضاها يُنظر، للأهالي على أنّهم همّج ولا يستقيمون لأيّ توصيف ولا يستجيبون لأي معايير بشريّة. "هؤلاء السكّان الذين يدبّون على الأرض، هذه الجماهير المستهترة، هذه الوجوه التي فرّ منها كلّ معنى إنساني، هذه الأجسام المترهّلة التي لا تشبه شيئا، هذا القطيع الذي لا رأس له، ولا ذنب، هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو أنّ لهم أهلا، هذا الكسل المستلقي تحت الشّمس، هذه الحياة التي لا تشبه حياة النباتات"[11] هذه الانطلاقة للبلاغة الكولونياليّة المحمومة التي لا حدود لتخيّلاتها ولا ضابط لاستعاراتها، هذه التّمثيلات المنفلتة من عقال الفكر، والمتفجّرة من جوهر اللّغة وفي وجه الوعي الشقيّ للمستعمِر، لا يسعها إلاّ أن تشحذ أسلحة المستَعمَرين وتوقظ فيهم صوت الأسلاف المنبعث من عمق التاريخ والدّاعي إلى استرجاع الأرض الجريحة من مغتصبيها.

إن مفردات من مثل: "يدبّون"، "القطيع"، "ذنب" مضافٌ إليها عبارات "الجماهير المستهترة"، فرّ منها كلّ معنى إنساني"، "الأجسام المترهّلة"، "لا رأس له"، تجعلنا أمام كائنات هجينة، ومستعصية على التّصنيف. إنّنا أمام قطيع من الدوابّ الهجينة ذات التركيبة الجسميّة الشّاذّة والمعيبة. وإنّ هذا التصنيف الدوني للعرب يتناقض تناقضا صارخا مع أهم مبرّرات الاستعمار الغربي لدول الهامش "إنّ من أكثر تناقضات الاستعمار إثارة أنّ هذا الأخير يحتاج إلى تمدين الآخرين التّابعين له، وفي نفس الوقت تثبيتهم في غيريّة دائمة" فكونهم متخلفين في تكوينهم الجبلّي لا يؤهّل الغرب لأيّ مهمّة تحضيريّة. وكما أنّنا لو أخذنا مولودا أسود البشرة منذ ولادته إلى أوروبا أو أمريكا، فإنّ تحول بشرته إلى اللون الأبيض متعذّرٌ، فكذلك، وانطلاقا من التصنيف الجوهراني للعرب، فإن تطوّر ذكائهم متعذّرٌ تماما.

وهكذا تتبيّن تناقض البنية الإيديولوجيّة للخطاب الكولونيالي، وطبيعته العنصريّة، ونواياه السيّئة تجاه موضوعه.

مسألة التمثيل:

لعلّ السّرد الروائي هو من أكثر أنواع السرد قدرة على تمثيل الآخر المختلف، والذي بسبب اختلافه ذاك أُعتُبِر دونيّا وناقصا وقاصرا عن فهم الحداثة الغربيّة وتمثّلها "إنّ القصص لا ترسم الحياة في أشكالها الطبيعيّة وكما يعيشها البشر المختلفون، "وإنما ترسم الحياة كما تصفها

الإيديولوجيا؛ فالإيديولوجيا– أي تمثيل الثقافة نفسها– تثبتُ أو تمنح طبيعة ثانية للتّمثيل القصصي، فتجعله يبدو طبيعيّا. فهي تقدّمُ ما هو في الواقع منشأ، على أنّه شيء صميمي في الذي يمثّلُ"[12] كما أنّ السرد الرّوائي والقصصي يغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويّتها الخاصّة وتاريخها المسكون بأمجاد ماضيها.

إنّ الرواية من حيثُ كونها مصنّعا ثقافيّتا من مصنفات المجتمع الطبوسطي والامبرياليّة الغربية غير قابلة لتخطر بالبال بفصل إحداهما عن الأخرى "لأن السرد يلعبُ دورا كبيرا في المسعى الامبريالي فليس من المفاجئ في شيء أنّ فرنسا (وخصوصا انجلترا) تمتلكان تراثا غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أيّ مكان آخر"[13]. والسؤال الذي يبدو أكثر إحراجا بالنسبة لمفكّري الكولونياليّة، هو كيف تمّ تمثيل المستَعْمَرين، في المخيال الرمزي للأدباء والرحّالة وحتّى الشعراء؟ ثمّ لماذا تمّ تغييب الأصلانيين من المشهد الثقافي والتاريخي للامبراطوريّة؟ فلم يكن لهم حضور إلاّ باعتبارهم كائنات لا قيمة لها، توضع في الرفوف إلى وقت الحاجة. كائنات هي أقرب للطبيعة منها إلى الثقافة. لقد بدا العرب –هكذا يسميهم السّرد الفرنسي– دون ذاكرة تاريخيّة ودون هويّة وجُرّدتْ الشخصيّات العربية في التّراث الرّوائي والقصصي للمرحلة الكولونياليّة، من أسمائها. فغدتْ كائنات كرتونيّة، جيء بها من أجل تعزيز حضور الرّجل الأبيض، الموصوف بكونه سيّدا مهيمنا على المشهد الاختلاقي.

كانت فرنسا تمنع نشوء تقاليد سرديّة تعبر عن الهويّة القوميّة واالثقافيّة للجزائر، كانت تمنع ذلك من خلال مؤسّساتها الثقافيّة والسياسيّة والعلميّة، لمعرفتها بعلاقة السرد بالأمّة؛ بينما سمحتْ وعملتْ على نشوء جيل من الروائيين الفرونكوفونيين، من أجل تثبيت قيمها ولغتها، وفكّ الارتباط مع كلّ ما يشعرها بأنّها كيان أجنبي ناشز. ومن أجل إنجاز هذه المهمة الكولونياليّة جعلتْ بينها وبين الأهالي وُسطاء يتمتّعون بمواقع اجتماعيّة مميّزة، وكان ردّ الفعل الطبيعي لهذا المسعى، نشوء سرديّة مضادّة تحاول وصل الجزائريين بلغتهم ومرويّاتهم وتراثهم الشعبي، وكانت المؤسّسات المهيّأة لإنجاز هذا الفعل الحضاري هي الزوايا والمساجد، التي تمكّنت من إبقاء روح المقاومة متوهّجة حتى في أشدّ مراحل الثورة ضعفا.

لقد كان خطاب المقاومة والخطاب الاستعماري يتنازعان المواقع الاجتماعية والسياسيّة الأكثر تقدّما. ورغم أن هذا الأخير كان يحظى بكل عوامل القوّة الماديّة التي تضمن له الانتشار عبر الفضاء المحلّي والعالمي، إلاّ أن خطاب الرفض، كان يتحيّن الفجوات والفضاءات البينيّة –

على ضيقها وانحسارها وحصارها– من أجل البقاء على قيد الحياة وتقويض سرديّة التنوير والتحضير التي تسوّغ للاستعمار الغربي.

وعندما يتحدّثُ منتجو الخطاب الاستعماري في المستوطنات عن وجودهم التاريخي في المستعمرات، نلمس الحسّ القومي طافيا على السطح، لا تشوبه شائبة، ولا يكدّره خليطٌ. "فالذي يجمع المستوطنين الأوروبيين بمختلف انتماءاتهم الإثنيّة والقوميّة هو أنّهم أوروبيّون، وهم يتمتّعون بالعطف الكولونيالي"[14]، بخلاف الأصلانيين فإنهم خارج دائرة الامبراطوريّة، وهم بالتالي يشكلون النشاز المطلق للعنصر الراقي الذي يتقاسم الأصل الواحد والديانة المشتركة وغالبيّة التقاليد، وهم بذلك يشكّلون أمّة متجانسة لا تقبل الدّخيل الذي يسمّمها.

يُمَثَّل للحضور الفرنسي في الجزائر على أنّه عمليّة استرجاع لتاريخ أوروبي يجبُ إنقاذه من النسيان، ف"المستوطن يصنع التاريخ وهو واع لصنعه إيّاه، لأنه يحيل باطراد على تاريخ وطنه الأمّ، فإنه يشير بجلاء إلى أنه هو نفسه امتداد لذلك الوطن الأم. وهكذا فإن التاريخ الذي يكتبه ليس تاريخ البلد الذي ينهبه، بل تاريخ أمته هو"[15]

إن الذين عبروا أرض الجزائر من غير الأوروبيين مثّلوا العرض الزائل والحضور الباهت الذي لا يترك أثرا. في رواية "فضل الليل على النهار" لياسمينة خضرا، نقرأ خطابا كولونياليّا لأحد الإقطاعيين الفرنسيين، يؤصّل للوجود الفرنسي في الجزائر، ويستدعي من أجل ذلك الذّاكرة التاريخيّة لهذه الأرض التي لا تدين إلاّ للرجل الأبيض. يخاطب المستوطنُ الفرنسيُّ "صوزي" الفتى العربي "جوناس" قائلا: "عندما آتي لهذا المكان لأتأمّل كلّ هذا أفكر في الرجال الذين كانوا هنا قبلي، منذ زمن بعيد وأتساءل عمّا كانوا يشاهدون حقّا؛ أحاول أن أتأمل هذه المناظر عبر العصور وأضع نفسي مكان ذلك الراعي البربري، والمغامر الفينيقي، والغازي الوندالي والفاتح المسلم، أيْ كلّ الرجال الذين قادهم القدر إلى هذه الأرض وتوقّفوا عند ذروة هذه الهضبة تماما في المكان الذي أقف فيه الآن. (.....) ماذا بإمكانهم أن يروا في مختلف تلك العصور؟...لا شيء. لم يكن هنا شيء سوى مرجة متوحشة تعجّ بالزواحف والجرذان. بعض التلال المكسوة بالحشائش البريّة"[16] ففي هذا المسرد التاريخي يبدو الحضور العربي عارضا وطارئا وباهتا، لقد اختزله "صوزي" في (الفاتح المسلم)، إشارة إلى أن المسلمين ليسوا الأبناء الشرعيين لأرض الجزائر، بل إنهم فاتحون، قدموا من الجزيرة العربية وأخضعوا الشمال الإفريقي للإمبراطوريّة الإسلاميّة، وهم لم يخلّفوا وراءهم إلاّ المروج المتوحّشة التي تعجّ بالزّواحف والجرذان، والتلال المقفرة إلاّ من الحشائش البريّة؛ إنهم لم يستقرّوا بهذه الأرض لأنهم لم يكونوا

قادرين على ترويضها وتأهيلها. ويعني ذلك من بين ما يعنيه أنّ فرنسا لمّا قدمتْ لاستعادة حقّها التاريخي وجدتْ أرضا خلاء، دون حضارة أو أثر لحضارة. لم تجد إلا الطبيعة العذراء بشكلها البدائي.

لقد كان الوجود العربي خاملا ولم تكن له يد في تاريخ هذه الأرض "لم يكن هناك كوخ على بعد أميال من هنا، لا شجرة ولا هيكل بهيمة جمَّده الانجراف. ومع ذلك لم يواصل جدّي (الخطاب لصوزي) زحفه بحثا عن أماكن أكثر رحمة، بل شمّر على ذراعيه وصنع بأصابعه العشر الأدوات التي كان يحتاج إليها للحرث والزرع والبذر، نقش وحفر هذه الأرض بيديه....شقاء في النهار...سجن في الليل وجحيم في جميع المواسم (....) بفضل عائلتي، جوناس، بفضل تضحياتها وإيمانها بهذه الأرض استطاعت أن تروض هذه الأرض المتوحشة"[17] هل نحن بإزاء روبنسون كروزوي؟ مُعَلِّم الحضارات الحديثة؟ لقد كانت تجربة روبنسون فعلا تجربة فريدة في الثقافة الامبرياليّة، من حيث قدرتها البلاغيّة على تلقين إنشاء الحضارات انطلاقا من القدرات الذّاتيّة للرجل الأبيض، الذي وجد نفسه وجها لوجه مع الطبيعة المتوحشة، وتمكّن بفضل عقله الفذ وسواعده القويّة وروحه الأسطوريّة من إنشاء حضارة ولم يكن مزوّدا إلاّ بأدوات بدائيّة وإرادة لا تُقهر، والمستوطنون الأوروبيون هم الآخرون لمّا دخلوا الجزائر لم يجدوا إلا أرضا بورا، وأكواخا متناثرة هنا وهناك، تشوّه الطبيعة وتسمِّم الحياة وتلوّثها بأنفاسها المتعفّنة.

إنّ خطابات الاستعمار بكلّ أنواعه ومواقيته متجانسة. هذه السرديّة التي ردّدها الاستعمار الفرنسي هي ذاتها التي يردّدها الاستعمار الإسرائيلي لأرض فلسطين. لقد ردّد دوما بأنّه وجد صحراء قاحلة. يتعلّق الأمر ببعض البدو الرحّل الذين عبروا الأرض أو تردّدوا عليها، دون أن يؤسّسوا حضارة. يتحدّث اليهود دوما عن العرب باعتبار غيابهم؛ فالأرض لأصحابها الإسرائيليّين الذين وُعِدوا بها في تراثهم التوراتي الأسطوري، كما أنّ أرض الجزائر هي أرض الرجل الأبيض الذي عمرها وأسّس حضارتها العلميّة بفضل العلوم الغربيّة، وسواعد الأوروبيين، وأدواتهم التكنولوجيّة؛ العرب لا يملكون إلاّ ما بنوه بالطّوب، من أكواخ وزرائب لا تصلح إلاّ للدّواب.

إنَّ الحضارة العظيمة التي انتصبتْ في أرض الجزائر لا تدين بالولاء إلاّ للفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين، وليس من حقّ أي جهة مصادرتها، أو ادّعاء امتلاكها، فهل بعد كلّ هذا ينهض عربيّ من سباته العميق ويدّعي أحقيّته في هذه الأرض؟ "كان فرانس فانون قد أنجز إدانته

للاستعمار بقوله إن أوروبا التي كانت حرفيّا من صنع العالم الثالث، بمعنى أنّ الثّروة الماديّة والعمل في المستعمرات: العرق والأجساد الميّتة للزّنوج، والعرب والهنود، والشّعوب الصّفراء، هي التي حقّقتْ ثروة أوروبا"[18]، بينما تدّعي فرنسا أنّ الجزائر الحديثة من صنعها، وأن عليها أن تصنع من الأفارقة بشرا أسوياء وقابلين للحداثة الغربيّة.

في الخطاب الكولونيالي يحتلّ العرب وجودا هامشيّا، فهم لا يساهمون في صناعة تاريخ بلدهم المُغتَصب، وهم ليسوا طرفا في بناء الحضارة العلميّة بحكم رفضهم للحداثة الغربيّة كما يقدّمها النظام الكولونيالي؛ إذ نجدهم في حالة الجزائر مثلا، إما في غيتوهات معزولة عن المدينة الأوروبيّة، وإما عبيدا في مزارع ومصانع الأوروبيين، مقابل أجور زهيدة لا ترقى إلى أجور المستوطنين، فإن الوجود الكولونيالي هو النفي المطلق للوجود الأصلاني "فالمنطقة التي يسكنها المستعمَرون لا تكمل المنطقة التي يسكنها المستعمِرون، إن هذين المنطقتين تتعارضان، لكن ليس في سبيل وحدة أعلى. إنّهما تخضعان لمنطق أرسطي صرف، إنّهما تخضعان لمبدأ التنافي المتبادل، فلا سبيل إلى مصالحة: إنّ أحد الطّرفين زائد ويجبُ أن يزول"[19] إنه المنطق المنوي المتاخم لمنطق العنف والاحتراب، لا مجال لوجود جماعي وعيش مشترك بين المستعمر والمستعمر؛ فحضور أحدهما ينفي حضور الآخر، الذي يسعى بدوره وبكل أدوات المقاومة إلى إثبات الحضور من خلال الفعل الثوري.

إنّ كلّا من الطرفين يسعى إلى قتل الآخر، وإزاحته عن المكان المشتهى، ويسعى إلى تغييب الخصم طيّ النسيان، ف"النظرة التي يلقيها المستعمَر على مدينة المستعمر هي نظرة الشّهوة وهي نظرة حسد. إنّ المستعمَر يحلم بالتّملّك، بجميع أنواع التملّك، أن يأكل على المائدة التي يأكل عليها المستعمِر، أن ينام في الفراش الذي ينام فيه المستعمِر، وربّما مع امرأة المستعمِر أيضا. والمستعمِر لا يجهل هذا. فهو حين يلحظُ نظرة المستعمَر يقول في مرارة: إنهم يريدون أن يحتلّوا مكاننا"[20] أن يزيحونا خارج البلاد، ويرموا بنا في عرض البحر. ولذلك يجب تأديبهم ويجب قتلهم وإبقائهم تحت السيطرة. يجب على العبد أن يبقى عبدا ليبقى السيّد سيّدا. يتبادل كلّ من المستعمِر والمستعمَر خطاب النفي والتغييب، والتّهميش خارج دائرة التاريخ الفعلي للحضارات. المستعمِر يحاولُ ذلك من خلال الخطابات، ومن خلال جهود الهيمنة عن طرق المعرفة المتواشجة مع السّلطة، وعن طريق القمع والإبعاد والسّجون والنفي، والمستعمر من خلال فعل المقاومة بأشكال متعدّدة، ثقافيّة وعسكريّة، ودون كلل "إنّ المستعمر لا يتوقّفُ أثناء فترة الاستعمار على عمله في إنهاك المستعمر وتحطيمه، إلاّ إذا اعترف له هذا

بتفوّق قيم البيض اعترافا صريحا وواضحا؛ وفي فترة التخلّص من الاستعمار، تسخر الجماهير من هذه القيم ذاتها، بل تهينها وتبصقها بصقا"[21]، وتلك طريقة أخرى من طرق مقاومة الاستعمار الذي يشيّء غير الأوروبيين، وهم بدورهم يجعلون قيمه محلّ سخرية وتبخيس، فكلّما حاول الأصلانيون إزعاج المستعمِر، أرسلوا إليهم من يحدّثهم عن القيم الغربية والحداثة والتّنوير، ويعدهم بجزائر مشرقة، غير أنّهم يشعرون بالتَّشنّج والتّصلّب العضلي.

إن منطق القطيعة يحكم العلاقة بين الاستعمار وأصحاب الأرض بشكل مطلق. إن مسألة العيش المشترك، والاندماج في وحدة مجتمعيّة وثقافيّة تسوّي بين الجميع باعتبارهم بشرا يستحقّون العطف الإنساني بنفس الدّرجة وإنّ تقاسم خيرات الأرض بالتّساوي بين المحليّين والوافدين، هي أمور لا تخطر ببال المستعمر الذي يرى نفسه أعلى درجة من المستَعمَر، وأحقّ بالأرض منه.

خطاب النكرة:

لا يزال ألبير كامي من منظور تاريخ الأدب الكولونيالي الحديث صاحب الكعب العالي في السرد الروائي. لقد كان ولا يزال يُنظر إليه باعتباره روائيّا عالميا في تمثيله لمصالح الامبراطوريّة الحديثة، وكانت رواياته الأكثر شهرة "الغريب" والطاعون، ومجموعة "المنفى والملكوت"، في رواية "الغريب" يقتل مورسو عربيّا، بكلّ برودة أعصاب ويُحال على العدالة الفرنسيّة، ويُحاكَم بشكل استعراضي وتهليلي لافت، احتفاء بالقيم المسيحيّة ذات الرّوح الكونيّة التي تحتضن الشرط الإنساني حيثما حلّت فرنسا، مركز الحضارة العالميّة. إن المجموعة من الشباب التي كانت تترصّد تحرّكات العرب تحمل أسماء فرنسيّة، وتنطق بلغة مفهومة، لغة حضارة كونيّة مهيمنة، فهي تتمتّع بوجود فعلي وذات هويّة مسيحيّة مفعّلة، إضافة إلى كونها تنتمي إلى تاريخ عريق، بينما تُسْقَطُ الأسماء عن العرب، فهم عربٌ وكفى، في وقت كانت هذه الصَّفة تحقيريّة يوصفُ بها الأصلانيّون باعتبارهم كائنات هامشيّة. يقتلُ مورسو عربيّا وهذا العربي لا هو بالجزائري، ولا هو بالفرنسي إنّما هو كائنٌ "لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أمٌّ أو أبٌ. وصحيحٌ أيضا أنّ العرب يموتون بالطاعون في وهران، بيد أنّهم دون أسماء كذلك"[22] يغدو هذا الوباء الماحق رمزا من رموز الوجود العربي، ومن هنا يكون حضور الرّجل الأبيض لتطهير هذه الأرض من الوباء ومن مسبّباته البشريّة والطّبيعيّة. يكمن الوباء الحقيقي في الذّات العربيّة تحديدا. فالطاعون عربي خالصٌ، لا يمكن أن يستفحل إلاّ بحضور العربي الذي لا يحمل اسما ولا هويّة، فهو لا يستحق الثروة التي يتربّعُ عليها.

يوهبُ الاسم إلى الإنسان من أجل تعيين هويّته القوميّة والثقافيّة. والأهمّ من ذلك أنّ الأسماء في بلد عربي كالجزائر، تحيل إلى هويّة عربيّة ذات بعد إسلامي، وهي مثقلة بعبق التاريخ والشرط الجغرافي "تكمن المفارقة اللاّذعة في أنّ كامي حينما يسردُ قصّة في رواياته أو في مقطوعاته الوصفيّة، فإنّ الحضور الفرنسي في الجزائر يُصاغُ إمّا كسرديّة خارجيّة، جوهرا لا يخضع للزّمان والتأويل، أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يُسرَدَ كتاريخ"[23] أماّ الوجود العربي فهو وجود عارضٌ وطارئ ومنته في الزمان والمكان، العرب أو المسلمون مرّوا على ذلك المكان، ولم يستقرّوا فيه، لأنّهم جاؤوا إليه للنَّهب والسَّلب، ثم غادروه لما استنفذوا خيراته، ليُكملوا رحلتهم كالرّاعي الذي يبحث عن الكلأ لأغنامه، فإذا نفذ الزرع وجفّ الماء انتقل إلى مكان آخر، فالمسلمون قدموا إلى الجزائر أثناء الفتوحات الإسلاميّة، ولم يشكّلوا جزءا جوهريّا من إفريقيا، مقارنة بالوجود الغربي العائد إلى الماضي البعيد.

في قصّة "المرأة الزّانية" حيثُ تهجرُ جانين، بطلة القصّة سرير زوجها، وهما نائمان بفندق في الرّيف الجزائري، تُصْدَمُ بالسلبيّة التي يتميّز بها الأصلانيّون وباستحالة فهمهم، بما أنّ وجودهم صامت وأخرس وبلا معنى. إنّ حضورهم لا يسترعي انتباهها، ولا يطال وعيها. فحضورهم غياب وظهورهم سراب، وحديثهم صخب. وعندما تغادرُ غرفة زوجها وتلتقي الحارس اللّيلي، يُخاطبها هذا الأخير باللغة العربيّة، فلا تفهمه. فاللغة العربية التي يتكلمها الأصلانيون هي عبارة عن أصوات كأصوات الطبيعة في إبهامها وغموضها وصخبها؛ إنّها ذروة القطيعة الثقافيّة والنّفسيّة مع الآخر المختلف، صاحب الأرض الحقيقي. عندئذ تتجلّى الطّبيعة كبديل ناطق ومُعبّر عن التّواصل المخصب، فتتوجّه جانين بكلّ وعيها وحماستها إلى الصّحراء، فلغتها أشدّ بلاغة من لغة العربي "ولأنّ اختلاف الآخر مطلقٌ، فإنّ من الممكن قلبه رأسا على عقب في لحظة ثانية كأساس للذّات. بعبارة أخرى تصبحُ صفات الشرّ والبربريّة والفسق والفجور العائدة للآخر المستعمر هي التي تجعلُ صفات الخير والطيبة والتحضّر لدى الذّات الأوروبيّة ممكنة"[24] فإذا كان العربي صامتا وسلبيّا فإن الفرنسي حاضر وبليغ في خطاباته، وإذا كانت لغة العرب أصواتا صاخبة ودون معنى فإنّ لغة فولتار هي لغة حضارة عريقة ومهيمنة، وإذا كانت الثقافة العربيّة غائبة في الجزائر الفرنسيّة ومغيّبة، فإن الثقافة الغربيّة هي ثقافة ليستْ فقط حاضرة ولكنّها تتمتّع بوجود راسخ في أوروبا وخارج أوروبا، إنها لغة الامبراطوريّة التي تضمّ العالم تحت جناحيها "إنّ الاستعمار من حيثُ هو نفي منظّم للآخر من حيثُ هو قرارٌ صارمٌ بإنكار كلّ صفة إنسانيّة على الآخر يحمل الشعب المستعمر على أن

يتساءل دائما هذا السؤال" "من أنا في الواقع؟"[25] ليحمله بذلك على الشعور بفقدان الهويّة وتبدّد التاريخ، وتواري مجد الأسلاف الذي أضحى ذكرى باهتة "وندرك بناء على هذا أنّ العنف الاستعماري ينطوي على مظهر معرفي، أي أنّه هجوم على الأنظمة الثقافيّة والفكريّة والقيميّة لدى الشّعوب المستعمَرة"[26]، التي لم تعد بمنأى عن المعركة، بل إنّها تمارسها بكل أعبائها التاريخيّة.

عندما كانت فرنسا تحت الاحتلال الألماني حافظ الفرنسيون على آدميّتهم. وظلّ الألمان على آدميّتهم تحت الاحتلال الفرنسي. أمّا في الجزائر فقد سوّى النظام الكولونيالي بين الأصلانيين والأمراض والأوبئة والأشياء الكريهة التي تجبُ إزالتها من الجزائر الفرنسيّة، إن مدّ الخطوط الحديديّة في الفيافي وتجفيف المستنقعات وإخضاع الطّبيعة الصمّاء للتكنولوجيا الغربية وإزالة السّكّان الأصليين من الوجود السياسي والاقتصادي كلّ ذلك إنما هو شيء واحد. لقد دأب الاستعمار على احتقار الأصلانيّين وتشييئهم ليعبر عن الجوهر الحقيقي للرسالة التَّحضيرية التي يسوغ بها استعمار المستضعفين في الأرض.

لقد وسّع الاستعمار، وتعمّق إلى حدّ لا رجعة فيه الصدام بينه وبين سكّان مستعمراته، منتجا بذلك سيلا من الصور والتَّمثيلات المسيئة بشكل لم يسبق له مثيلٌ، فالأهالي إرهابيُّون ومخربون ومتخلّفون ومقمّلون، وبرابرة. إنّ "من أكثر تناقضات الاستعمار إثارة، أنّه يحتاج إلى تمدين الآخرين التّابعين له، وفي نفس الوقت تثبيتهم في غيريّة دائمة"[27] إن ممّا تعلّمناه من خطابات الحداثة الغربيّة أنّه لا يمكن تحويل الآخر إلى المثل، فالشرق شرق والغرب غربٌ ولا يمكن أن يلتقيا إلاّ ضمن علاقة السيّد بالعبد.

كتب جون بول سارتر مقدّمة صدّر بها كتاب فرانس فانون "معذّبو الأرض" وأورد ما يلي: "منذ زمن غير بعيد جدا كان عدد سكّان الأرض مليارين، منهم خمس مائة مليون من البشر ومليار وخمس مائة مليون من السكّان الأصليين، فالأوّلون يملكون الكلمة والآخرون يستعيرونها، وبين هؤلاء وأولئك يقوم "الوسطاء" ملوك صغار مشترون وإقطاعيون وبورجوازية زائفة ملفقة تلفيقا"[28] ووفق هذا المنطق المانوي، فإن أقليّة من البشر يتمتّعون بصفة الآدميّة وأغلبية السكّان هم أصلانيّون وكفى، هم أشبه ما يكونون بحيوانات أليفة تقطن مناطق شاسعة من اليابسة. فإن عالم السيادة الكولونياليّة الحديثة عالما مانويا، تقسمه سلسلة من الثنائيات الضديّة التي تعيّن الذّات في مقابل الآخر، والشرق في مقابل الغرب، والرجل الأبيض في مقابل السّود والحاكم في مقابل المحكوم، والمركز في مقابل الهامش، إنّ ومثل هذه التَّضادّات

مهمّة ليس من أجل خلق صور الذّات الخارجيّة فحسب، بل مهمّة بالدّرجة ذاتها لبناء الذّات الداخليّة، ذات الرجل الأوروبي الأبيض، الغرب يشكّل ذاته ويقوّيها من خلال اكتشاف الآخر وإضعافه ثم قتله رمزيّا، أي تأبيد بقائه في خدمة العرق المتفوّق.

لقد كان إنتاج السرد الروائي والرّحلي وسيلة بالغة الأهميّة لإنتاج هويّة أوروبا المختلفة والمتفوقة من خلال علاقتها مع شيء "أصبح بالإمكان تسميته (بقيّة العالم)"[29] إن أوروبا بدءا من عصر النهضة ومرورا بالأنوار والحداثة وما بعدها لم تكن ترى إلاّ ذاتها؛ فهي مركز العالم، والبقيّة تابعٌ وملحقٌ وغير نافعٌ ولا يستحقّ الأرض التي يتربّعُ عليها. صحيحٌ أنّ أوروبا انسحبتْ من مستعمراتها بسبب تكاليف وجودها الفعلي، غير أنها ثبّتتْ حكومة بورجوازيّة بديلة، تضمن مصالحها، وتضمن حضورها الثقافي والاقتصادي القويّ. ولا يزال النّظام العالمي اليوم يُسيَّرُ بمعايير النظام الاستعماري القديم، فالإيديولوجيا التي كانت تصنع العلاقات بين المركز والهامش أثناء الاستعمار الكلاسيكي لا تزال هي نفسها تهيمن على العلاقة بين الشرق والغرب "إنّنا نعيش في نظام رأسمالي وحيد في العالم ينظّم تطور بعض الدّول وتخلّف بعض الدّول الأخرى أو تبعيّتها. عالم اليوم مقسم إلى دول رأسماليّة متطوّرة وأخرى متخلفة"[30]، وذلك بسبب وضعها باعتبارها دولة تابعة، دون سيادة فعليّة.

إنَّ صناعة التاريخ المعاصر يُصنعُ اليوم بغياب دول الهامش، والخطاب الغربي الموجّه لشعوب العالم الثّالث هو خطابٌ استعلائي، غيري، إقصائي، وله وكلاء محليّين يحفظون بقاءه مهيمنا.

لقد تحوّلت البورجوازيّات الوطنيّة التي انبثقت عن النظام الاستعماري إلى الأداة الفاعلة للنظام العالمي الذي يقسّم البشر إلى أقليّة مهيمنة وأغلبيّة مهيمن عليها.

في الرواية الغربيّة الحديثة يجري تمثيل الأفارقة على أنّهم لصوص ومخادعون وبرابرة؛ وهي الصور الأكثر تردّدا في الرواية الغربية الحديثة والمعاصرة. في رواية "بعد سبع سنوات" للروائي الفرنسي "ميسو غيوم" يتقمّص بعض الشَّباب التَّونسي من الذين دخلوا أوروبا بطريقة غير شرعيّة دور الشخصيّات المنبوذة التي تعيش على هامش المجتمع المتحضّر، وتمارس التجارة غير الشرعيّة وتترصّد الأجانب العابرين لمواقعها من أجل سلبها أموالها عن طرق الغدر والخديعة، هذه السرديّة أُريد لها أن ترمز للوجود العربي في الغرب، وهو وجود منبوذٌ على هامش المجتمع المتحضّر والراقي. إنَّهم نتيجة فساد حكّامهم ونتيجة الأنظمة الدكتاتوريّة التي ألقت بهم خارج الدائرة باعتبارهم زائدة دوديّة يجب استئصالها. واللاّفت أنّ أدوات المعاقبة التي

تملكها الحكومات الغربية تحجم عن طردهم وتفضّل الإبقاء عليهم لوقت الحاجة، بيد أنّ الذي لا تُفصح عنه هذه الرواية، هو أن هذه الزّائدة الدوديّة ما كان لها أن تكون لو لا دعم الغرب لدكتاتوريّات الهامش.

كان سيباستيان، المواطن الأمريكي يبحث عن ابنه "جيريمي" –الذي فرّ من بلده إلى فرنسا، لأسباب مجهولة–في بعض أحياء باريس الأطرافيّة، حيث يتواجد العرب والأفارقة بكثافة؛ وقد رصده شابٌّ تونسي وأوهمه أنّه على علم بمكان وجود ابنه، واستدرجه إلى مكان معزول حيث يتجمّع العرب والأفارقة، وانقض عليه هؤلاء وجرّدوه من كل أمواله بعد أن "أوسعوه ضربا، وسلبوه ما معه. أومأ يوسف لشريكيه فأطلقا سراحه واختفيا في لمح البصر"[31]. لم ير يوسف جيريمي، ولم يكن يعرفه قطّ، ولكنه سمع أباه يتلفظ باسمه لماّ كان يسأل أحد بائعي الصحف، فالتقط اسمه وتخيّل ببداهة اللّص المحترف الدّور الذي يتعيّن عليه لعبه. كان العرب الذين لفظهم مجتمعهم قد دخلوا أوروبا بطريقة سريّة، وكانوا يمارسون في أحسن الأحوال الحرف اليدويّة، أو التجارة غير الشرعيّة، كالمخدّرات والتبغ المهرّب، وما شابه ذلك.

لقد مثّل العرب في المركز البؤرة الأكثر نشاطا للفساد والرّذيلة والأعمال التي يعزفُ عنها الأوروبيّون. وهم بذلك، وكما أريدَ لهم بقوا مخلصين لعرقهم الدّوني كما مثّلته سرديّات الاستشراق الحديث. ف"الشرقيون عريقون في الكذب، وهم كسالى وسيّئو الظنّ، وهم في كلّ شيء على طرف نقيض من العرق الإنجلو ساكسوني في وضوحه ومباشرته ونبله"[32] فلم تغير الامبرياليّة الغربية من مواقفها من العرب بعد انسحابها من مستعمراتها القديمة، وهي تسير مصالحها بنفس العقيدة الاستعلائيّة والعدائيّة. لا يزال الغرب متمركزا على ذاته، ولا يزال يعتبر نفسه مركز الحضارة الإنسانيّة صانعها وسيّدها. وعلى الآخرين أن ينضووا تحت لوائه، إذا كانوا يبحثون عن دور ما فيما يسمونه النظام العالمي الجديد، أي عالم ما بعد الحرب الباردة.

خاتمة:

لقد كان الغرب ولا يزال مصنّعا للصور التمثيليّة حول آخريه، وإن تفكيك بنية الاستعمار الكلاسيكي لا تعني مطلقا تغيّر علاقات القوة والهيمنة بين الغرب والهامش، ولا يزال العربي رمزا لكلّ أشكال الشرّ والبربريّة، ولا تزال نظرة الرّجل الأبيض للملوّنين مريبة، رغم سقوط نظريّات التّفاوت العرقي ورغم تقويض الأسس الفلسفيّة لعقيدة المركزيّة الغربيّة من طرف الغربيين أنفسهم وبأدوات نقديّة غربيّة تحديدا، كما أن العربي لا يزال مغيّبا عن المشهد العالمي المعاصر، فهو دوما في حالة انتظار قرارات العواصم الغربيّة لكي يتبيّن مصيره وما يُرادُ له.

كان العربي ولا يزال رمزا للإرهاب والأوبئة والرّذائل؛ وهي الصّور التي تشكّلت عبر قرون من الاحتراب بين الغرب والشرق، بدءا من الحروب الصّليبيّة، ومرورا بحروب الاسترداد في الأندلس ووصولا إلى حروب الاستعمار الحديث. فإنَّ لكلّ عصر حروبه بين الغرب والشرق، ولكل حروب أدواتها ومساحاتها، وإنّ مساحات حروب عصرنا هي الكون كلّه. ما من بقعة من بقاع الأرض يراقُ فيها دمٌ إلا بفعل مضاعفات الإمبراطوريّة الغربيّة، وبفعل العلاقات غير المتكافئة بين المركز والهامش، وما من قرار دوليّ يُتَّخذ إلاّ والعربُ مُغيّبون عنه، وهم في مؤخّرة القافلة، يمشون متثاقلين وبخطى عرجاء وكأنهَّم مشكّلون من ضلع واحد، ويطئون الأرض بقدم واحدة، ويحدّقون في الكون بعين واحدة.

يعتقد الغرب أن الخيرات التي يتربّع عليها العرب غير مستحقّة، وأنّ من حقّ الغرب أن يأخذها بالثّمن الذي يحدّده هو مقابل تعويم أسواقهم بمنتجات التكنولوجيا الحديثة، فهم عاجزون عن إنتاجها، ومقابل الأدوية التي تشفيهم من أوبئتهم–وهي كثيرة وخطيرة–وتحقق لهم الرَّفاهية التي يحلمون بها.

يبدو حضور العرب في الثقافة الغربيّة التي تمثّلهم باهتا، فهم لا يزالون رمزا للشرّ والدّمار الماحق، ولا يزال صوتهم غير مؤثّر، ولا يلفت أيّ انتباه، كما أنَّهم أُفْرِغوا من مهابتهم كما أُفرِغت ثقافتهم من أجدادهم الغابرين. لقد خلا تاريخ العرب الحديث من الانتصارات، ومن الفتوحات العلميّة والحضاريّة بشكل عام؛ ولم يعد لوجودهم من معنى خارج الدائرة الغربيّة، إنَّهم لا يساوون الجغرافيا التي يحتلونها ولا يستحقون الخيرات التي يقبعون تحتها، ولا يزال حضور الإمبراطوريّة ضروريّا لوجودهم.

الهوامش:

[1]-بيل أشكروفت وآخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية، تر: أحمد الروبي وآخرون، تقديم كرمة سامي، المركز القومي للترجمة، طبعة 2010. ص 139.

[2]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]-هنتش تيري، الشرق المتخيّل، تر: مي عبد الكريم محمود، دار المدى، سوريا، ط الأولى 2006. ص 202-273.

[4]-المرجع نفسه، ص 141.

[5]-بيل أشكروفت وآخرون، مرجع مذكور، ص 142.

[6]-المرجع نفسه، ص 141.

[7]-فرانسفانون ،معذّبوالأرض، ترجمة سامي الدروبي، مدارات للطباعة والنشر،القاهرة، ط الثانية 2015، ص44.
[8]-المرجع نفسه، ص 44.
[9]-تزفيطان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى، دمشق-سوريا، ط الأولى 1999. ص 143.
[10]-المرجع نفسه، ص 234.
[11]-فرانس فانون، معذّبو الأرض، ص 44-45.
[12]-ليندة هيتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، تر: حيدر حاج إسماعيل، مركز ، مركز دبي، الوحدة العربية، العراق. ط الأولى 2009. ص 140.
[13]-سعيد إدوارد، الثقافة والامبرياليّة، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الثالثة 2004. ص 67.
[14]-ألبير ميمي، صورة المستعمر، تر: ميشال سطوف، إشراف سمير سطّوف، منشورات ANEP، ط 2007. ص 18.
[15]-سعيد إدوارد، الثقافة والامبرياليّة، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب-بيروت، ط الثالثة 2004، ص 326.
[16]-ياسمينة خضرا، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، ص 217-218.
[17]-المصدر نفسه، ص 2018.
[18]-آنيا لومبا، في نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والوزيع، اللاذقيّة- سوريا، ط الأولى 2007. ص 57.
[19]-فرانس فانون، معذّبو الأرض، ص 41.
[20]-المرجع نفسه، ص 42.
[21]-فرانس فانون، معذّبو الأرض، ص 45.
[22]-سعيد إدوارد، الثقافة والامبرياليّة، ص 236.
[23]-المرجع نفسه، ص 239.
[24]-هاردت مايكل ونيغري أنطونيو، الامبراطوريّة، تعريب فاضل جنكر، مكتبة العبيكان، الرياض-العربيّة السعوديّة، ط الأولى 2002. ص198.
[25]-فرانس فانون، معذّبو الأرض، تر: سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط الثانية 2015. ص 200.
[26]-آنيا لومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، ص 64.
[27]-المرجع نفسه، ص 176.
[28]- آني الومبا، نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، ص 19.
[29]-المرجع نفسه، ص 67.
[30]-المرجع نفسه، ص 138.
[31]-ميسو غيوم، بعد سبع سنوات، ترجمة محمد التهامي العماري، سنا للنشر، المركز الثقافي العربي، ط الأولى 2015. ص 175.
[32]-سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث الأبحاث العربيّة، بيروت-لبنان، ط السابعة، 2005. ص 70.

*** *** ***